الخلافية القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة فى يد النصارى عصراً يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومعاهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجدها الباهر الذى حوله الأسبان منذ افتتاحها إلى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهت بذلك معالمه ومناظره الأولى ، ولكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مزكيتا » Mesquita أى المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من معاهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالمها منذ عصر بعيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب ، فى شمال غربى قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la viesa ؛ ويقوم إلى جوار موقعها القديم إلى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بنى بانقاض قصر الزهراء [1] وقد عنيت الهيئات الأثرية الأسبانية فى العهد الأخير باجراء الحفر فى تلك النقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالمها الحقيقية [2]

وقد كان لهذا المصير المحزن الذى انحدرت اليه مدينة الناصر بسرعة مؤسية شبيه بين مصاير القواعد الملوكية الاسلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطائع الملوكية التى أنشأها ابن طولون إلى جانب الفسطاط ، وأسبغ عليها ولده خمارويه آيات رائعة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تمحى القطائع بين يوم وليلة ، بعد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق فى العظمة والمنزلة السلطانية ، وفى ظروف العصر ، وصروف الأحداث ؟

محمد عبد الله عنان

(١) Ency. de Fislam-Cordoue

(٢) راجع فى تاريخ الزهراء وأخبارها وأوصافها : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ — ٢٤٨ وللمسالك والممالك لابن حوقل — ص ٧٨ و ٧٩ ، وياقوت فى معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضا Dozy : ibid, II, P. 174 Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172

مذاهب الفلسفة

٢ — المذهب الطبيعى *

للأستاذ زكى نجيب محمود

إذن فالجامد والحى شيئان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحدة هى الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التى يصادفها المذهب الطبيعى هى هذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعى فتنجو به من هذا المأزق العسير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل

أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليما وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخذ يبحث فيما يطرأ على الحياة من تغير وتحول ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الكائن الحى قد تسلسل من كائن حى قبله ، وهذا من كائن حى قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد فى بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أى بين الكائنات السفلى والكائنات العليا ، وإذن فدارون لم يقدم فى نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعى ، وهى ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

ثم جاء فى أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحجة على أن الحياة إن هى إلا ضرب من ضروب المزيج الكيميائى بين أجزاء المادة ، فاذا كنا نبغى الوصول الى الحلقة التى تصل الحياة بالجماد ، فما علينا إلا أن نلتمس علماء الكيمياء ! ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم فى عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، ومديهى أنها لاتعبر لكاتبها عن رأى خاص

الشقة الفسيحة التي توهمها الأولون ، فالفرق كل الفرق بينهما اختلاف في درجة التعقيد والتركيب . أما العقل فضرب من ضروب الطاقة كالحرارة والكهرباء والضوء

ولكن ما بالنا نركب رءوسنا فلا يرضينا إلا أن يقوم الدليل على أن العقل قد نشأ من الجماد نشأة تدريجية معقولة وإلا كان الأمر في أعيننا لغزاً معلقاً ؟ فلم لا تكون الحياة قد خرجت من الجماد خروجاً فجائياً مباغتاً بغير مقدمة ولا تمهيد ؟ قلب النظر في جوانب الكون تر آلافاً من الأشياء التي جاءت إلى الوجود من غير مقدمة منطقية ؛ خذ طعم الملح مثلاً وسائل نفسك من أين جاء ؟ هو لم يكن في عناصر الملح الأولى التي من مزيجها نشأ الملح ، وإذن فقد جاء هذا الطعم الذي نعرفه للملح طارئاً مباغتاً . فلماذا لا تكون الحياة ولا يكون العقل قد نشأ كلاهما على هذا النحو ، فيكون لهما من الخصائص ما ليس لعنصرها الأول : أعني ما ليس في مادة الطبيعة الجامدة . . . تلك حجة جديدة يؤيد بها أنصار المذهب الطبيعي رأيهم

ولكن دعك بعد هذا كله من تطور العقل سواء أكان تدريجياً أم مفاجئاً ، وحسبنا أن نأخذه كما هو بين أيدينا . فهل يستطيع المذهب الطبيعي أن يفسر كيف يعمل العقل ؟ كيف يمكن لقطعة من اللحم أو الشحم أن تخلق فكراً وتبدع خيالاً كما نرى ؟ إنه ان استطاع أن يعلل ذلك هان عليه بعد ذلك كل شيء ، ولهذا تراه اليوم يجاهد جهاد الأبطال في ميدان علم النفس لعله واجد عنده نصيراً وظهيراً ؛ وها هو ذا علم النفس منذ منتصف القرن الماضي ينحو في بحثه نحواً فسيولوجياً ، أي أنه يعتبر العقل وظيفة للمخ لا أكثر ولا أقل ، فهو لذلك خاضع كبقية أعضاء الجسم لقوانين العلة والمعلول . وكثير بين علماء اليوم من يزعم أن كل ظواهر الانسان الروحية والعقلية لا تعدو أن تكون نتائج كيميائية لبعض افرازات الجسم . وليس بعيداً عن هؤلاء أن يحين الحين الذي يسيطر فيه الانسان على قواه العقلية ، بأن يبتكر طعاماً معيناً يفرز إفرازاً خاصاً يرفع القدم الوضيع إلى مرتبة الفلاسفة والحكماء !!

المذهب الطبيعي والدين :

لما كان أنصار هذا المذهب يتشبثون بالطبيعة وحدها ، فهم ينكرون أشد انكار أن يكون وراءها أية حقيقة أخرى ، وبعبارة موجزة واضحة : هم ينكرون الدين وكل ما يتصل بالعقيدة الدينية من حقائق لا تمت إلى ظواهر الطبيعة بسبب من الأسباب . فان سألتهم قائلاً : إن كانت العقائد ضلالاً في ضلال فما الذي حدا بالانسان بادئ ذي بدء أن ينظر إلى العالم بمنظار روحي ، ومن أين جاءه هذا الاتجاه في التفكير ؟ أجابوك إنه خطأ بشري ككل ما يقع فيه الانسان من أخطاء ، ولكنه في رأيهم خطأ واجب مفيد لم يكن للانسانية عنه بد في حياتها الأولى

إنما ينشد الانسان الحق في الرأي لا لشيء إلا أن تكون الحقيقة عوناً له في طريق الحياة ؛ إذ الفكرة الصائبة توضح السبيل وتيسر الطريق ، وتعمل على استمرار البقاء واجتناب الخطر ؛ وعلى نقيضها الفكرة الخاطئة ، فهي مضللة للانسان مبعثرة لجهوده في غير ما طائل ، بل إنها قد تضره وتؤذيه وتؤدي به إلى الموت . ولما كانت العقائد الدينية مجموعة آراء نسجها الانسان ووشج بينها ، كان لنا أن نقول إنه كلما بعدت العقيدة عن الصواب كانت أدنى إلى إيذاء الانسان والعمل على تدهوره ، ولكن مما يهون الأمر أن الفكرة الخاطئة لا يستفحل خطرها وأذاها إلا إذا مست حياة الانسان العملية فأثرت فيها أثراً مباشراً ، فان لم تكن كذلك كانت قليلة الخطر أو عديمته ؛ فلما كان الانسان مثلا في العصور القديمة لا يتعدى بأسفاره ورحلاته نطاقاً محدوداً ضيقاً ، لم تكن لتؤذيه فكرة أن الأرض مسطحة على خطئها ، فالخطأ والصواب في مثل هذه الحالة سواء ، بل كثيراً ما يكون الخطأ أنفع للانسان من الرأي الصحيح كأن توهم المشفى على الموت بأنه قوي سليم

وعلى هذا النحو كانت فائدة النظرة الروحية في مراحل الانسانية الأولى ، إذ كانت العقيدة أقوى حافز يدفعه إلى العمل والنشاط حينما كان الانسان أشد ما يكون حاجة إلى التشجيع . فقد كان أول أمره يهيم مع أوابد القفر وضواري الناب ، يعيش لساعته عيش الحاجة والضرورة ، فلما أراد أن يعلو على مستوى الحيوان وأن يتخذ لنفسه في الحياة منزلة رفيعة ومكانة ممتازة بين الأحياء ، مستعينا بما أوتي من عقل وخيال ، رأى أن الوسيلة الأولى هي أن يحطم أغلال الضرورة ما استطاعت حيلته ، وأن يوسع من

أفق زمانه فينفذ ببصره إلى الغد ، وهنا أخذ يعيش فى جو من أحلام ينسجها لنفسه بقوة خياله ، وسرعان ما ألقى فى روع نفسه أن هنالك - فوق العالم الذى يرى - قوة سامية سترعاه وتأخذ بيده مما يصادفه فى حياته من عسر وإشكال ، وتمكنت من نفسه العقيدة بأن تلك القوة العليا ستكون له خير هاد ومرشد فى طريقه نحو الكمال الذى أخذ يرجوه ويبتغيه بعد أن نفض حياته الحيوانية الأولى ، وتحرر من رق الضرورة واستبدادها

تلك كانت نواة العقيدة الدينية التى عملت فيما بعد على تماسك الأفراد وترابطهم فى تكوين المجتمع ، إذ أوحت إلى الناس ضرورة احترام العادات والتقاليد التى هى الأساس الأول فى بناء المجتمع ، كما خلعت على السلطة المدنية مسحة مقدسة زادت من هيبتها واحترامها ؛ وبديهى أنه لا بقاء لمجتمع بغير سلطان محترم مهيب ، وهكذا كان الدين عماداً قوياً فى بناء المجتمع أول الأمر كما كان خير مدرب لمشاعر الانسان وعواطفه ، إذ راضها وصقلها وأجراها فى سبيل صالح مستقيم ، ولعل هذا هو السبب الذى من أجله كان الدين كنفاً ترعرعت فى ظله الفنون الجميلة على اختلافها إبان طفولتها

كل هذه حسنات للدين مشكورة غير منكورة ، ولكن قد يكون هذا الذى عاون الانسان على السير فى أول الطريق عائقاً يحول اليوم دون تقدمه ، وقد يكون « فرويد » العالم النفسى الكبير مصيباً فى رأيه بأن الدين صالح لتقويم الأخلاق إبان الطفولة حتى إذا ما نضج الانسان كان لزاماً عليه أن يواجه مشكلات الحياة العملية فى صرامتها وجدها ، ولا ينبغى أن نطيل الوقوف عند هذه الرحلة الأولى - مرحلة الأحلام الجميلة والآمال الحلوة بأن قوة سامية ستحول بين صدورنا وبين ضربات القدر وسهامه ، فلئن كان الدين قد ساهم بقسط وافر فى تطور الحياة البشرية ورقيها فلقد فرغت رسالته وأصبحت الانسانية اليوم فى مرتبة من رشد الكهولة تجعلها فى غنى عنه

ويقول أوجست كونت فى هذا الصدد إن طريقة تفكير الانسان بإزاء العالم قد سارت منذ نشأتها إلى اليوم فى مراحل ثلاث : الأولى هى المرحلة اللاهوتية حيث كانت تفسر الأحداث بقوى الآلهة ؛ والثانية ، وهى المرحلة الغيبية حيث كان الانسان يعلل حوادث الكون بمجموعة من القوى ، فيعزو الحياة إلى القوة الحيوية ، والنار إلى الحرارة ، وسقوط الأجسام إلى قوة ثقل الأجسام ؛ والمرحلة الثالثة هى المرحلة الايجابية التى فيها يفسر الناس ظواهر الوجود بأسباب مباشرة تسبق حدوث الظاهرة المعينة ، فاذا وقعت العلة جاء فى أثرها المعلول تبعاً لقانون معروف ؛ وهذه المرحلة كما يقول كونت هى أسمى مراحل العقل البشرى ، وهى هى المرحلة التى تجتازها الانسانية اليوم . وهكذا يدعو أصحاب المذهب الطبيعى إلى نبذ العقائد على الرغم من رسوخ قدمها فى النفس وتأصل جذورها فى القلوب ، ويهيبون بالناس أن يواجهوا حقائق الكون الواقعة فى شجاعة وإقدام

* * *

والعجيب أن هذا المذهب الطبيعى لم يعدم فى كل عصر من عصور الفكر ظهيراً ونصيراً ، فقد وجد بين فلاسفة الاغريق من يقيمه ويؤيده كديمقريطس ؛ ووفق فى مستهل العصر الحديث الى رجل مثل « توماس هوبز » الذى أخذ على نفسه أن يفسر كل شئ فى الوجود على أنه مادة متحركة ليس إلا ، فتناول العقل نفسه وقال إنه نتيجة لجملة الأحاسيس التى تنفذ الينا خلال الحواس الخمس ، ولما كان هذا الاحساس أثراً مباشراً لتحرك الأعصاب ، وهذه نتيجة لازمة لما يقع بين الأشياء المادية من حركة ، كان العقل بكل ما فيه من ذاكرة وخيال وما اليها ضرباً من ضروب الحركة المادية لا أكثر ولا أقل - هذا وإن ديكارت الذى يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وواضع أصولها قد نادى بأن الكائن الحى لا يزيد على آلة صماء عمياء تسير فى حياتها كما تسير الآلة الميكانيكية ، وقال إن جسم الانسان أيضاً آلة كسائر صنوف الحيوان ولو أنه استثنى العقل من هذه الآلية وقال إنه عنصر ممتاز . ثم جاء القرن التاسع عشر ، وهو عصر ازدهرت فيه المادية ووجدت طائفة كبيرة من المشايعين ، على رأسهم دارون وسبنسر وبخنر وهيكل وهكسلى ونيتشه ، فسار المذهب الطبيعى على أيديهم شوطاً فسيحاً فى تدعيم قواعده

(يتبع) زكى نجيب محمود